فاتحة دروس

الفلسفة الاسلامية*

بقلم الاستاذ مصطفى عبد الرازق
أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

من المستشرقين من يريدون بالفلسفة الاسلامية النزعات اليونانية فى التفكير الاسلامى. ويعهدون لدرس هذه الفلسفة باستنباط خصائص تفصل بين المزاج العقلى السامى والمزاج العقلى الآرى ...

فيقول (ريفان) مثلا ، فى كتابه عن ابن رشد ومذهبه : « إن خواص النفس السامية تتجلى فى انسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين ، وإلى البساطة فى اللغة والصناعة والفن والمدنية ؛ أما النفس الآرية فيميزها ميل فطرى إلى التعدد وانسجام التأليف »

ويقول مؤلف حديث اسمه (مسيو لابى Lapie) فى كتاب له عنوانه « المدنيات التونسية » : « إن النفس السامية تختلف فى شعبيها العظيمين : اليهود والعرب . فالنفس اليهودية منساقة بفطرتها إلى المستقبل ، والنفس العربية منساقة بفطرتها إلى الماضى ، فهما متنافرتان ، والنفس الأوربية تختلف عنهما معاً »

ولا يرضى هذا التميز ولا ذاك (مسيو جوتيي Gauthier) أستاذ تاريخ الفلسفة الاسلامية فى جامعة الجزائر ، فهو يريد أن يميز بين الجنس السامى والجنس الآرى بخصائص أخرى ؛ فيقول فى كتابه « المدخل إلى درس الفلسفة الاسلامية »

" Introduction à l'étued de la philosophie Musulmane "

« فى كل مظاهر النشاط الانسانى من أدناها كمسائل الطعام واللباس ، إلى أعلاها كالنظم السياسية والاجتماعية ، تتجلى فى الجنس الآرى من ناحية والجنس السامى معتبراً فى أخلص أنواعه — أى النوع العربى — نزعات أساسية متقابلة. العقل السامى يجمع بين الأشياء متناسبة وغير متناسبة مع تركها منفصلة من غير رباط يصلها، منتقلا بينها بوثبة مباغتة من غير تدرج. أما العقل الآرى فعلى عكس ذلك يؤلف بين الأشياء بوسائط متدرجة لايتخطى واحد إلى غيره إلا على سلم متدانى الدرج ، لايكاد يحس تنقله » .

ومتى تم لهذا الفريق من المستشرقين وضع الحدود الفاصلة فى نظرهم بين العقل السامى والعقل

* هذا البحث الجليل الشأن هو فاتحة دروس الفلسفة الاسلامية التى ألقاها الاستاذ الكبير السيد مصطفى عبد الرازق ، فى كلية الاداب بالجامعة المصرية .

الآرى حتى لاتتلاشى منازعهما ، ذهبوا يبينون أن الاسلام دين قوى فى ساميته جداً،فلا يمكن تصور نظام دينى أشد منه معارضة لفلسفة اليونان القوية فى آريتها جداً . وكان أول واجب على الفلاسفة المسلمين أن يوفقوا بين هذين التيارين المتقابلين ، بحكم أنهم مسلمون متمسكون بدينهم ، وبحكم أنهم فلاسفة همهم أن ينشروا مذاهب الفلسفة اليونانية .

ويقول مسيو جوتيي : « إن الفلاسفة الاسلاميين لم يألوا جهداً فى القيام بواجبهم من هذه الناحية ، وقد أبدوا فى ممارسته — على مافيه من دقة وعناء — خصالا منقطعة النظير من مهارة ونفاذ وبعد نظر . ورأيهم فى ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال هو السائد على أنظارهم الفلسفية ، وهو معقد الطرافة فى هذه الفلسفة اليونانية الاسلامية » .

ويبين الأستاذ بعد ذلك أن الفلسفة اليونانية هى التى ساقت فلاسفة الاسلام إلى هذا الاتجاه ، وهى كانت مستمد عناصره ، وذلك بأن فكرة التوفيق بين الفلسفة والدين هى فكرة مزج واتصال ، وليس غير التفكير الآرى لمحاولة الاتصال بوسائط متدرجة فى سلسلة متتابعة بين ضدين ،هما : الاسلام دين الفصل ، وفلسفة الوصل اليونانية .

***

ووراء هذه الطائفة من المستشرقين طائفة أخرى تقرر أن المراد بالفلسفة الاسلامية : النزعة اليونانية فى الحكمة الاسلامية ، مع اعتبار مابذله مفكرو الاسلام من جهود عقلية مبنية على ماكان معروفاً فى عصورهم من معانى البحث العلمى لتحصيل صورة علمية عامة للكون ، أو جهود بذلت على الأقل لبحث مسائل متصلة بتصور شامل للعالم . وهى بهذا الاعتبار ينبغى أن تعتبر من الفلسفة .

هذا قول الاستاذ (هرتن) محرر الفصل الخاص بكلمة « فلسفة » فى دائرة المعارف الاسلامية " Hoerta Insyclopedie De Islam "

وبعد أن قرر أن هذا التعريف ينطبق على علم الكلام " La Ihéologie speculative "

بين أن تقدير قيمة الفلسفة الاسلامية يتوقف على تعرف مافى منهاج فلسفة أرسطاطاليس من نقص كملته تلك الفلسفة الاسلامية . ثم بين أن من مميزات هذه الفلسفة أن رجالها مؤمنون إيماناً راسخاً بأن الاسلام هو أكمل ماتنزل به الوحى السماوى . فالنبى تنكشف له حجب الغيب عن حقائق ربانية لايصل إليها العقل ثم يبلغها للناس . أما الفيلسوف فينتهى بعقله الضعيف إلى بعض تلك الحقائق من غير حيدة عن تمام الانسجام مع ماجاء به القرآن ، ففلاسفة الاسلام كأنما هم ألسنة حجاج عن الدين .

ونأتى بعد ذلك لمذاهب مؤلفى العرب فى معنى الفلسفة الاسلامية ، فنجد فيهم أمثال

« الشهرستانى » الذين يرون : أن فلاسفة الاسلام قد سلكوا كلهم طريقة أرسطاطاليس فى جميع مذهب إليه وانفرد به ،سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأى أفلاطون والمتقدمين .

أما ابن خلدون فيقول فى المقدمة :

« اعلم أن العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الأمصار تحصيلا وتعليماً ، هى على صنفين : صنف طبيعى للانسان يهتدى إليه بفكره ، وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه . والأول هى العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر .والثانى هى العلوم النقلية الوضعية ، وهى كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ،ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول ... »

ويقول ابن خلدون أيضاً :

« وأما العلوم العقلية التى هى طبيعية للانسان من حيث إنه ذو فكر : فهى غير مختصة بملة ، بل يوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم ، ويستوون فى مداركها ومباحثها ، وهى موجودة فى النوع الانسانى منذ كان عمران الخليقة ، وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة » .

وبعد أن بين العلوم التى تشتمل عليها الفلسفة ، وتصدى لتاريخ الفلسفة قبل عهد الاسلام، جاء الى عصر المأمون فذكر العناية باستخراج علوم اليونانيين وترجمتها ثم قال :

« وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وحذقوا فى فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها،وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده،ودونوا فى ذلك الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم »

وخلاصة رأى ابن خلدون : أن الفلسفة الاسلامية تقوم على آراء فلاسفة اليونان،خصوصاً أرسطاطاليس ، مشروحاً غامضها ، مصححاً مافيها من خطأ مكملا نقصها .

وهذا الرأى غير بعيد من رأى الاستاذ هرتن ؛ غير أن ابن خلدون يرى أن هذه الفلسفة بعيدة عن الاسلام بعد كل فلسفة عن كل دين خصوصاً فى قسم الالهيات وهو قسم عظيم من أقسام الفلسفة :

« لأن مسائل علم الكلام إنما هى عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ،بمعنى أنها لاتثبت الآن ، فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها ، فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة،بل إنما هو التماس حجة عقلية : تعضد عقائد الايمان ومذاهب

السلف فيها ، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية ، وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة العقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها ، وكثير ما بين المقامين ؛ وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية ؛ فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية ، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها ...»

ومن أجل اعتماد الفلسفة الاسلامية — كسكل فلسفة — على العقل وحده ، كانت غير شرعية ، وكانت في نظر الشرعيين — كالغزالي — مابين أبحاث مستغنى عنها لتكفل علوم الدين بما جاءت به ، وأبحاث ضارة غير نافعة من الوجهة الدينية ، ولم يسلم من الحرج الديني عند هؤلاء من أقسام الفلسفة إلا الرياضيات .

* * *

ولسنا ننكر فضل المستشرقين على الفلسفة الاسلامية ، فإن أبحاثهم الحافلة بفنون المعارف ودقائق الأنظار ، الآخذة بأسباب المناهج الحديثة في الدرس ، هي من أهم المراجع في دراستنا الناشئة ولا غنى لنا عنها .

لكننا نلاحظ أن حكاية السامية والآرية ، التي يفتن بها بعضهم ، وهي شبيهة بحكاية الشعوبية وما إليها مما فتن الناس في عهد الاسلام حينا ، لا تعتمد — برغم عرضها في صورة البحث العلمي — على سناد علمي ، وإنما هي فروض مضطربة لا تخلو — عند التمحيص — من عصبية وهوى ؛ وقد ذكر الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل» ما كان معروفاً في زمنه من النظريات الخاصة بأجناس العالم فقال :

« من الناس من قسم أهل العالم بحسب الأقاليم السبعة ، وأعطى أهل كل إقليم حظه من اختلاف الطبائع والأنفس التي تدل عليها الألوان والألسن . ومنهم من قسمهم بحسب الأقطار الأربعة ، التي هي الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ووفر على كل قطر حقه من اختلاف الطبائع وتباين الشرائع . ومنهم من قسمهم بحسب الأمم فقال كبار الأمم أربعة : العرب والعجم والروم والهند ، ثم تزاوج بين أمة وأمة ، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية ؛ والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمور الجسمانية »[1]

* * *

ويدل ذلك على أن هذا البحث العتيق لم ينته بالباحثين إلى اتفاق ؛ ولعله لن يزال متجدد

(١) الشهرستاني ج ١ ص ٣ ب ؛

النظريات حتى يمحو الله من نفوس البشر عصبية الأجناس والألوان .

ونلاحظ أيضاً أن وجهة المستشرقين فى درس الفلسفة الاسلامية هى وجهة ضيقة، وأنهم إنما يتعرفون نسبتها إلى الفلسفة اليونانية وأثر هذه الفلسفة فيها . وذلك يجعل البحث عن كيان الفلسفة الاسلامية والإلمام بأطرافها وتتبع نشأتها وأطوارها فى المحل الثانى من عنايتهم .

أما الباحثون فى الفلسفة الاسلامية من علماء الاسلام فهمهم أن يعرفوا نسبتها إلى العلوم الشرعية ليدلوا على موضع التعارض ويردوه ؛ وليس هذا ولا ذاك مرمى بحثنا .

وجهة بحثنا فى هذه البحوث هى أن نستخرج بواكر التفكير الفلسفى الذى يعتمد على العقل وحده فى الجماعة الاسلامية منذ نشأة الاسلام، وتتبع تطوره فى عهوده المختلفة حين اتصل ببعض علوم الدين، وحين امتاز عنها ، مع اعتبار العوامل التى كان لها أثر فى هذه التغيرات.

وإذا خفنا من أن تضيق عبارة الفلسفة الاسلامية بمعناها الاصطلاحى ، عن أن تسع هذا البحث ، فقد يكون من الأخذ بأسباب الوضوح فى البيان أن ندعو موضوع دراستنا: النظر العقلى وأطواره فى الاسلام . ؟

مصطفى عبد الرازق

من والد حزين الى ولد دفين

للأستاذ مرسى شاكر الطنطاوى

[قالها فى رثاء ولده أحمد برهان شاكر، المتوفى فى سن العشرين]

برهان ! أنهى كتاب العيد يحمله ... صمت أراه على الآلام مستندى

فقد غنيت به عن شرح واقعة ... كادت تثور على حلمى ومعتقدى

لولا يقين وإيمان يطالعنى ... يوماً ألاقيك فيه غير متئد

فما سئمت فراقاً أنت شارعه ... إلا لحكمة ما قررت من جلد

كم ذا أحسك طيفاً فى مشاهدتى ... ولا أمسك ضيفاً حل بين يدى

أودعت قلبى أرضاً كنت تسلكها ... وعشت فيها بلا قلب ولا كبد

وما نزعت ثياب الموت بالية ... إلا ارتديت لباس الغير من جدد

سبحان من شفع البلوى بطائفة ... من الخلود تقيم الذكر فى خلدى